السعيد الصبرى

«وبعد فترة وجيزة أصبح الحزب الاشتراكى المصرى حديث مدينة المنصورة».
السعيد الصبرى

بحثت عنه طويلا. قرأت اسمه ضمن المقبوض عليهم فى الحملة البوليسية ضد أعضاء الحزب الشيوعى (الأهرام - ١٢٩٤/١٠/١) ولأن قائمة المقبوض عليهم فى مدينة المنصورة كانت طويلة بما أثار الدهشة. حاولت أن أتعقب الأسماء: عبد الحميد الطوبجى (توفى) الشيخ أحمد الموافى (توفى) محمد عبد الجليل (توفى) شفيق باسيور (أبعد عن مصر عام ١٩٢٤).. وبقى اسمان أحدهما السعيد الصبرى والثانى حافظ سند. وكان ذلك عام ١٩٧٠ عندما كنت منغمسا حتى أعماقى فى إعداد رسالة الدكتوراه عن تاريخ الحركة الاشتراكية المصرية.

ما إن سألت أبى هذا الاسم حتى أمر واحداً: «روح إنده عمك السعيد الصبرى من دكانه». وأتى الرجل العجوز مهرولا، وما إن سألته حتى تدفق بلا توقف لعلها لحظة انتظرها طويلا. أن يحكى عن تاريخ حياته وتاريخ حزبه. وبعدها امتدت جلساتنا فى محله الصغيرة. جزمجى شاطر ومشهور بدقة الصنعة. كان يحكى وأنا أكتب ويداه لا تكفان عن العمل، يغرس الإبرتين فى ثقب يصنعه المغراز فى نعل الحذاء ثم يفرد يديه.. ويتكلم. ويقول: «ولدت عام ١٨٩٠ تقريبا تركت الكتاب وأنا طفل، واشتغلت صبى جزمجى فى هذا المحل. وفى عام ١٩١٧ كان عندى حوالى ٢٧ سنة تعرفت إلى شخص ابن ذوات هو عبد الحميد الطوبجى كان عائدا لتوه من إنجلترا حيث حصل على شهادته الدراسية. جاء لأصنع له حذاء. تحدث وتحدثت. شكوت له عن سوء الأحوال وحدثنى عن أهمية العمل النقابى وتأسيس نقابة لعمال الأحذية وتحدث عن المساواة والاشتراكية.. سحرنى بحديثه والتقينا عديداً من المرات وبفضل توجيهه أسست النقابة وأصبحت عضوا فى مجلس

إدارتها. وفى ١٩٢١ تأسس الحزب الاشتراكى، وانطلقت بحماس شديد فى العمل الحزبى. وفى وقت وجيز أصبحنا ٧٠ عضوا. وقمت أنا باستئجار مقر للحزب فى ميدان الطميهى. وأعد زميلنا حافظ سند (نجار) لافتة ضخمة علقت على واجهة المقر (الحزب الاشتراكى المصرى ـ شعبة المنصورة) وأعلن الحزب أن مقره مفتوح لجميع العمال ليتخذوه ناديا لهم. ثم أقام مدرسة لمحو أمية العمال وكان يدرس فيها أحد أعضاء الحزب (الأستاذ القناوى الخولى). وفصلاً، دراسياً، آخر لتعليم اللغة الفرنسية مقابل ٢٥ قرشا فى الشهر. ثم قرر الحزب أن ناديه ملك لكل العمال يقيمون فيه أفراحهم ومآتمهم مجانا. ثم قمنا بتكوين فرقة موسيقية من أبناء العمال وكانت تعزف فى أفراح العمال مجانا. لكن أهم مشروع قمنا به هو أننا أسسنا جمعية للإسعاف، وكان مقرها هو مقرنا وتطوع عدد من الأعضاء للعمل كمسعفين. وعندما بدأت انتخابات مجلس البلدية رشحنا الرفيق سعد عثمان نور وتحالفنا مع حزب الوفد وكان مرشحه كامل يوسف صالح المحامى، وتحرك رفاقنا ليلاً ونهاراً فى حملة انتخابية هزت المنصورة بأكملها ونجحت قائمتنا، ورد لنا الناجحون الجميل فاتخذ المجلس البلدى فى أول اجتماع له قراراً باعتبار مقر الحزب الاشتراكى مقراً ذا نفع عام ومن ثم جرى إعفاؤنا من سداد قيمة استهلاك الكهرباء والمياه.

وكان المسئول المركزى عن شعبة المنصورة هو الشيخ صفوان أبو الفتح.. وناقشنا فى ضرورة تحويل الحزب الاشتراكى إلى حزب شيوعى، كان الكلام معقدا وغير مفهوم لعامل بسيط مثلى لكننى كنت أحترم الشيخ صفوان لحماسه وغزارة علمه. ووافقت ووافق معى الكثيرون.

وفجأة بدأت حملة ضدنا شنتها جريدة محلية اسمها "الدلتا" اتهمتنا بأشنع التهم. هذه الجريدة ظلت تصدر طويلا فى المنصورة دون أن تكون لها علاقة بالسياسة. وبعد فترة من البحث علمنا أن الحكومة هى التى حرضت الجريدة علينا.

ومع ذلك استمر نشاطنا الجماهيرى، قررنا ألا نرد على هذه الحملة بالكلام وإنما بالأعمال، وانغمسنا فى تأسيس نقابات عمالية واتحاد لنقابات عمال المنصورة. وزدنا فصول محو الأمية. لكننا لاحظنا أن الناس بدأت تخاف وتتردد. غير أننا واصلنا لكن هذه الجريدة ظلت تهاجمنا وتحرض البوليس للقبض علينا وإغلاق مقرنا، بل أخذت تنشر

أسماءنا وعناوين منازلنا محرضة البوليس والناس علينا. ثم جاءت الحملة البوليسية التى أعقبت إضراب عمال شركة ايجولين فى الإسكندرية. وتلى ذلك حل الحزب وقرار مصادرة مقاره. فهاجمنا البوليس واستولى على المقر وعلى ما به من أوراق وقوائم عضوية، وقبض على عدد كبير منا. وبدأ البوليس حملة تخويف لسكان المدينة فكل أقاربنا وكل من يزورهم أو يتعامل معهم فى أشغالهم أو حتى يجلس معهم فى المقاهى أو يحييهم فى الطريق العام، يستدعى إلى قسم البوليس ويهدد بالقبض عليه ويحذر من تكرار ذلك.

أما نحن فقد رحلنا بالقطار إلى الإسكندرية حيث جرى معنا تحقيق مطول، وبعد فترة أفرج عنى.

ومرة أخرى زارنى عبد الحميد الطوبجى، وكان قد تركنا عندما غيرنا لافتة الحزب الاشتراكى إلى الشيوعى واقترح أن نؤسس حزبا عماليا على غرار حزب العمال البريطانى. ونشطت معه بعض الوقت لكننى وجدت هذا العمل بلا طعم وبلا فائدة».

كان الحوار يجرى عام ١٩٧٠. غادرته على موعد بعد شهر. عدت وجدت المحل مغلقا. كنت حريصا على أن ألتقط صورة له. وأكمل حديثى معه. سألت أبى عنه فقال: «تعيش أنت».